10. الفصل التاسع

أبرز القادة في عصر الدولة الطولونية

بدأ ضعف العباسيين تدريجياً بعد خروج العرب[216] من الجيش وظلت مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد حيث كان الخليفة العباسي رمز للأمة الإسلامية أكثر منه حاكماً لها ، فكما نعلم جميعاً أن الخلافة العباسية بدأت بداية قوية علي يد خلفاء أشداء كأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وهو ما يسمي بالعصر العباسي الأول ثم بدأ الضعف تدريجياً إلي أن أصبح الوزراء والأمراء يسيطرون علي الدولة بل وصل الأمر إلي أن أصبح هناك ملوك وسلاطين يسيطرون علي كافة الأمور ولكن في ظل الخلافة العباسية التي كانت تمنحهم شرعية الحكم ، فلا يتم تقليد ملك أو سلطان إلا إذا رضي عن ذلك الخليفة في بغداد حتي ولو كان مجرد إجراء رمزي ولكن مهم جداً لأي حاكم في العالم الإسلامي ، بعد أن تنازل الخليفة العباسي[217] عن معظم صلاحياته للقادة والملوك الذين يحكمون شتي بقاع العالم الإسلامي ، وفي أحد المراحل التاريخية للدولة العباسية (- - كان الخلفاء يولون حكم مصر لبعض الأتراك في صورة إقطاع مقابل دفع جزية معلومة ، لكن هؤلاء المُقطَعين كانوا لا يفضلون الابتعاد عن بغداد والخلافة ، خشية إبعادهم عن مسرح الأحداث السياسية ويكتفون بإرسال من ينوب عنهم في حكم مصر ، ومن هؤلاء النواب الذين قدموا إلي مصر سنة 254 هـ "868م" أحمد بن طولون وهو من المماليك الأتراك الذين نشأوا في البلاط العباسي - -)[218] ، ولما ولي أحمد بن طولون علي مصر استكثر من العبيد في جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة علي أربعة وعشرين ألف غلام تركي وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق)[219]

---

[216] ولعل من أخطر الأحداث تأثيراً هو استبدال الجنود العرب بجنود أتراك وقد لاحظنا من قبل أن أي دولة تعتمد في حروبها علي عناصر أجنبية يصل بها الحال إلي سيطرة هذه العناصر عليها مع مرور الوقت وازدياد قوتهم وطبعاً مع فارق التشبيه يمكن أن نتذكر معاً ما حدث عندما استعان الفراعنة بالمرتزقة الليبيين والإغريق ، فبالرغم من دخول الليبيون والإغريق الديانة الفرعونية في ذلك الوقت إلا أنهم سيطروا علي مقاليد السلطة بالبلاد وصار مصيرها بين أيديهم ، وطبعاً مع الفارق الكبير بين هذا المثال وبين ما نحن فيه ، لأن الجنود في الجيش الإسلامي كانوا مسلمين والإسلام دين شامل وللعالم أجمع ويستوعب جميع الجنسيات ، ولكن كان يُفضل الاحتفاظ بالجنود العرب كعنصر رئيس في الجيش الإسلامي طالما أن الدولة عربية في الأساس ، وقد اصطفي المولي عز وجل العرب من دون الناس ليبعث منهم نبيه صلي الله عليه وسلم ، وكذلك نزل القرآن الكريم بلغتهم وبالتالي أصبح العرب مسئولين عن الدعوة لهذا الدين والذود عنه ويساعدهم في ذلك من أسلم من الجنسيات الأخرى بالطبع ، وقد اقتضت الصراعات السياسية في ذلك الوقت الاستعانة بجنود غير عرب وخاصة ما حدث في عهد الخليفة المعتصم الذي استكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة (-- ثم لم يلبث أن أرسل إلي كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر"217هـ-219هـ " " وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك " ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي

[217] لقد وصل الأمر بأحد الخلفاء العباسيين إلي أن أنشد شعراً يعبر عن أحواله كما ورد بكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي

أليس من العجائب أن مثلي - - - يري ما قل ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا - - - وما من ذاك شئ في يديه

إليه تحمل الأموال طراً - - - ويمنع بعض ما يجبي إليه

[218] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 101

[219] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج1 صفحة 58

أحمد بن طولون :

يعد أحمد بن طولون من أبرز وأشهر الشخصيات في تاريخ مصر فهو من مؤسسي الدول ، (- - وقال عنه المقريزي : وكان قد نشأ نشوءاً جميلاً وطلب الحديث وأحب الغزو وخرج إلي طرسوس مرات ولقي شيوخ المحدثين وسمع عنهم ، وكتب العلم وحصل من ذلك قطعة كبيرة ، وصحب هناك جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فتأدب بآدابهم وحسنت طريقته وظهر فضله ، حتى تمكن له في قلوب الأولياء ، ما ارتفع به علي طبقته وبان فضله علي وجوه الأتراك وصار عندهم ممن يوثق به - -)[220] واستطاع أحمد بن طولون التخلص من منافسيه وأصبح له السلطة المطلقة[221] في مصر بلا منازع وبهذا كان حكمه نهاية لما يسمي بعصر الولاة الذي تكلمنا عنه من قبل ، فقد قام ابن طولون بتوريث حكم مصر لأولاده من بعده وقام بإنهاء حالة الفوضى والاضطراب التي كانت موجودة في مصر (- - والوقع أن نظام الولاية في مصر قبل أن يتولى ابن طولون حكمها لم يكن كله قائماً علي الفوضى والاضطراب ، فقد شهدت مصر منذ الفتح العربي لها إلي قيام الدولة الطولونية ولاة معظمهم من الأكفاء ، عملوا علي إقامة مجتمع أساسه العدالة وفقاً لمبادئ الإسلام ، ولم يستهدف هذا المجتمع خدمة الحاكم أو طبقة معينة علي نحو ما ساد في العصرين الروماني والبيزنطي ، إنما انصرف المصريون لمزاولة شئون حياتهم اليومية ، لا يشكون في غالب الأحوال من ثقل ضرائب أو تعسف حكم أجنبي بغيض - -)[222]

ويقول د جمال الدين الشيال عن القطائع (- - لما ولي أحمد بن طولون علي مصر ، اتخذ لنفسه جيشاً كبيراً كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك فضاقت بهم الفسطاط والعسكر فأراد أن يبني لهم عاصمة جديدة وبناها في الفضاء الذي كان بين العسكر وبين جبل المقطم - - وبني فيها قصره العظيم وشيد جامعه المعروف باسمه - وجعل بين القصر والمسجد ميداناً كبيراً لسباق الخيل وعرض الجند -)[223] وقد تم بناء القطائع وما بها من منشآت علي طراز مدينة سامراء التي بناها العباسيون في العراق ، حتي أن مئذنة الجامع الشهير الموجود إلي الآن تشبه مئذنة جامع مدينة سامراء ، وكان بالقطائع العديد من الأسواق والمساجد والطواحين والحمامات والأفران والقصور (- - وتزايدت العمارة حتي اتصلت بالفسطاط وصار كل بلداً واحداً -)[224]

أما الاستقلال الذي قام به ابن طولون بمصر فهو ليس استقلالاً بالمعني الشائع لهذه الكلمة في هذه الأيام ، بل إنه استقلال من نوع خاص جداً سبق أن وضحناه في الفصل الرابع من هذا الكتاب ،

ولقد كانت عاصمته الجديدة القطائع غاية في الفن الهندسي أنفق علي إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة في الشرق والغرب وكانت دورها واسعة وحدائقها أوسع ، ولما كانت القطائع تقع علي قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد أقام لها قناطر شديدة الارتفاع ورفع الماء إليها عن طريق سواقي في المكان المعروف الآن بفم الخليج ، وقد ازدهرت الحالة الاقتصادية في مصر في عهد الدولة الطولونية ، وأجمعت المصادر علي

---

[220] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 102

[221] قد يكون القاسم المشترك بين كبار القادة الذين حكموا مصر هو الانفراد بالسلطة ، فهل هذا هو الأسلوب الأفضل لحكم مصر وتحقيق الإنجازات بها

[222] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 103

[223] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 44

[224] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 44

اهتمام الطولونيين بتقدم أحوال مصر الاقتصادية وازدهارها ويدل علي ذلك وفرة الثروات التي خلفها الطولونيين ورخص الأسعار وتوفر السلع في سائر أنحاء مصر بصورة لم تشهدها من قبل ، كما أن أحمد بن طولون كان يهتم بالطب وصحة المواطنين بشكل غير عادي حيث قام ببناء مستشفي كبير مجاني وألحق به صيدلية لصرف الأدوية مجاناً أيضاً دون تمييز بين الطبقات والأديان ، ويظل المريض تحت العلاج حتي يتم شفاءه وكانت دلالة شفاء المريض قدرته علي أكل رغيف ودجاجة وعندئذ يسمح له بمغادرة المستشفي وكان ابن طولون يتفقد المستشفي ويتابع علاج الأطباء ويشرف علي المرضي ، كما اهتم ابن طولون بالجيش الضخم الذي كان يسيطر عليه سيطرة كاملة وكان لديه أسطول قوي وأنشأ مراكب حربية متقنة الصنع ، كما حدثت طفرة صناعية في مصر في هذا العصر وخاصة صناعة النسيج والزجاج والورق والأسلحة والصابون والسكر وقام ابن طولون ببناء دار لسك العملة ، حيث سكت الدنانير ذات المستوي الرفيع في النقاء ، وشهدت مصر في عهده نهضة تجارية عظيمة ، فكانت البضائع التي تصل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر الأحمر إلي مصر ومنها إلي موانى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، كما كان في مصر في هذا العهد أيضاً العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء والشعراء نبغوا في عهد الدولة الطولونية وغاية القول في هذا الموضوع أن مصر في هذا العهد شهدت فترة ازدهار في جميع المجالات وشاركت في النهضة الحضارية ، التي شهدها العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري ،

واكتسب ابن طولون في مصر حب الجميع علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم المختلفة فقد كان كما يقول عنه ابن الأثير "عاقلاً حازماً ،كثير المعروف والصدقة[225] متديناً يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين "[226] وعندما مرض مرضاً شديداً في آخر أيامه (- - خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والمعلمون بالصبيان إلي الصحراء ودعوا له - -)[227] مما يؤكد أن الستة عشر عاماً التي قضاها ابن طولون في حكم مصر حتي وفاته بها كانت من أفضل الأيام التي مر بها المصريون في ذلك الوقت ، وقد حكم أحمد ابن طولون وأولاده مصر لمدة 38 سنة تقريباً[228] فكانت فترة حكم أحمد ابن طولون من سنة 868 م إلي سنة 884 م ثم جاء ابنه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وحكم مصر من سنة 884 م إلي سنة 896 م ثم أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون لمدة أيام قليلة ثم هارون بن

---

[225] وكانت صدقاته علي أهل المسكنة والستر وعلي الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار ... سوي ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر علي تجديد النعم ، وسوي مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع ، علي كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران علي القدر ، وكانت تعمل في داره وينادي : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر وتفتح الأبواب ويدخل الناس الميدان ، وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر إلي المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك فيحمد الله علي نعمته ، ولقد قال له مرة إبراهيم بن قراطغان وكان علي صدقاته : أيد الله الأمير ، إنا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة ، فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم ، فقال : يا هذا ، كل من مد إليك يده فأعطه ، فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالي في كتابه فقال (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ)(273-سورة البقرة) ، فاحذر أن ترد يدا امتدت إليك وأعط كل من يطلب منك

[226] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 109

[227] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 109 ، 110

[228] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 78

خمارويه من سنة 896 م إلي سنة 904 م ثم شيبان بن أحمد بن طولون في ديسمبر 904 م ولم يحكم إلا أياماً[229] ، ولاحظ معي عزيزي القارئ أن فترة أحمد بن طولون وابنه خمارويه تقريباً هي الفترة المستقرة نسبياً في عصر الدولة الطولونية أما بعد ذلك فقد حدثت بعض الاضطرابات في الدولة الطولونية ويؤكد هذه الاضطرابات قصر فترة حكم باقي الطولونيين بل إن أحدهم تم خلعه من الحكم بواسطة الجيش ، كما انتهت حياة هارون بن خمارويه بالقتل ولم تدم فترة حكم شيبان بن أحمد بن طولون إلا أياماً معدودة وكل هذا يؤكد ما سبق ذكره من أن الملوك والقادة الأقوياء يؤسسون المُلك وأولادهم وأحفادهم الضعفاء يضيعونه

خمارويه بن أحمد بن طولون :

أكد العديد من المؤرخين أن خمارويه لم يكن علي نفس مستوي أبيه من القوة والعظمة بل الفترة التي جاءت بعد ابن طولون كانت تشبه السير بالقصور الذاتي حيث أن العجلة التي أدارها ابن طولون بقوة لم يعد أحد بعده يديرها بل ظلت تدور تأثراً بقوة ابن طولون فقط إلي أن توقفت تماماً وانهارت الدولة ، ولأن ابن طولون أسس دولة قوية وأدار العجلة بقوة دفع ضخمة فقد ظلت تدور فترة ليست بالقصيرة حتي توقفت تماماً ، وغاية ما يقال عن خمارويه أنه كان مسرفاً إلي حد ما (– – ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمة التي تركها له أبوه فأخذ يسرف في البناء وأنواع الترف – –)[230] ، وكان الخليفة المعتمد قد مات هو وأخوه الموفق وخلفه الخليفة المعتضد بالله بن الموفق ، واهتم خمارويه باكتساب ود الخليفة العباسي الجديد وعرض عليه (– – زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندي من ابن الخليفة ولكن الخليفة اختارها لنفسه فوافق أبوها علي ذلك وجهزها بجهاز يفوق الوصف مما أدي إلي إفلاس مصر وقد أفاضت المصادر في وصف جهاز العروس – –)[231] ويقال أن خمارويه أمر ببناء قصر علي رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين مصر وبغداد لتقيم فيه ابنته أثناء سفرها إلي الخليفة (– – مجهز بكل وسائل الراحة والرفاهية كأنها في قصر أبيها في مدينة القطائع إلي أن وصلت بغداد ودخل بها الخليفة المعتضد في ربيع الآخر سنة 282 هـ (مايو 895 م)[232] وغاية ما يقال عن عصر خمارويه وما بعده وحتي انتهاء الدولة الطولونية ما قاله الكاتب محمود السعدني عن ابن طولون وأولاده (– – فلما مات ماتت دولته كذلك وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذي قام لم يكن دولة ابن طولون ولكن شبح الدولة وصدي الصوت القوي الذي كان يتردد في جنباتها يوماً ما غير بعيد –)[233] ، وقد كتب الشعراء قصائد من الشعر حزناً علي سقوط الدولة الطولونية

وإليك بعض أبيات من رثاء الدولة الطولونية من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي :

قف وقفةً وانظر إلي الميدان والقصر ذي الشرفات والأيوان

والجوسق العالي المنيف بناؤه ما باله قفر من السكان

---

[229] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 79

[230] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 111

[231] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 111

[232] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 111

[233] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 25

فانظر إلي ما شيدوا من بعدهم هل فيه غير البوم والغربان
أين الألي حفروا العيون بأرضه وتأنقوا فيه وفي البنيان
غرسوا صنوف النخل في ساحاته وغرائب الأعناب والرمان
والزعفران مع البهار بأرضه والورد بين الآس والريحان
كانوا ملوك الأرض في أيامهم كبراء كل مدينة ومكان
فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم تحت الثري يبلون في الأكفان
والله وارث كل حي بعدهم وله البقاء وكل شئ فان

ولقد سادت الفوضي بعد موت خمارويه وأصبحت مصر غير قادرة علي السيطرة علي ممتلكاتها في الشام وغيرها ، وجاء ثلاثة من الطولونيين حكموا مصر لمدة قصيرة ، بلغ فيها الضعف ما بلغه مما أدي إلي انهيار الدولة حيث كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت يراقب ما يحدث في مصر ويتابع ما يدور بها وقرر استعادة السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة علي مصر عندما وصل بها الحال إلي ما ذكرناه من ضعف وفوضي واضطرابات[234] ، وكان الخليفة العباسي الموجود في ذلك الوقت هو المكتفي بالله ابن المعتضد بالله وقام المكتفي بالله بإرسال جيش وأسطول إلي مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب للقضاء علي الطولونيين حيث أوقع الهزيمة الساحقة بهم بحراً وبراً وقام القائد العباسي محمد بن سليمان بحرق مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية ما عدا الجامع الكبير بها والموجود إلي الآن والذي يعتبر الشاهد الوحيد علي مدينة القطائع وحضارتها وجمالها ويبدو في الصورة جامع ابن طولون وهو ما تبقي من مدينة القطائع

[234] لاحظ معي عزيزي القارئ أهمية الحاكم القوي في استقرار الأمور ومدي تأثر البلاد بالحاكم الضعيف إلي درجة انعدام النظام فيها